قريته، ومن القرية التي ضمت ذلك البيت العتيق الذي انتقل اليه، داخل الوطن، بعيداً عن خطوط القتال. غير أن الرواية، عبر تداعيات أبي قيس، وفي لحظة مكاشفة يخاطب فيها نفسه، تضيء شيئاً عن حالته، وعن المكان الذي يحتويه في المنفى، بعد اقتلاعه من الوطن... يقول أبو قيس: «في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئاً سوى ان تنتظر... لقد احتجت الى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدّق أنك فقدت شجراتك وبيتك وشبابك وقريتك كلها... في هذه السنوات الطويلة شقّ الناس طرقهم وأنت مقع ككلب عجوز في بيت حقير... ماذا تراك تنتظر؟ أن تثقب الثروة سقف بيتك... بيتك؟ إنه ليس بيتك... رجل كريم قال لك: أسكن هنا! هذا كل شيء، وبعد عام قال لك أعطني نصف الغرفة، فرفعت أكياساً مرقّعة من الخيش بينك وبين الجيران الجدد... وبقيت مقعياً حتى جاءك سعد وأخذ يهزك مثلما يهز الحليب ليصير زبداً»[٩٩]. ثمة إذن غرفة في مكان ما في مجال المنفى خارج الوطن، تصير بعد عام من المكوث فيها نصف غرفة فحسب، لأن الغرفة شطرت بأكياس الخيش كي يشغل نصفها الآخر لاجيء آخر، بناء على رغبة فاعل الخير، الرجل الكريم الذي قدم الغرفة لأبي قيس وأسرته المكونة من زوجته وابنه قيس وطفل صغير، وجلي ان قيمة الانتماء الى المكان غير متوفرة، فأبو قيس يراه «بيتاً حقيراً» ثم لا يراه بيتاً بل غرفة، ولا يرى أنه بيته، فهو مسكون ببيته الذي هناك وبشجراته التي غرسها في حقله في قريته. وتبدو هذه الغرفة الفارغة تكثيفاً لسنوات المنفى «الكبيرة» و«الجائعة». ولسنوات «الانتظار» الطويلة.

وحين يجيء سعد ويحرّك في وجدان أبي قيس، وعقله، مسؤولياته إزاء الاسرة وتعليم قيس والأبن الذي سيكبر، ويدعوه الى شق طريق في المنفى، تنبثق في أحلام يقظة أبي قيس، المسكون ببيته وشجراته وقريته، امكانية اعادة انتاجها جميعاً في مكان ما، بالاضافة الى تعليم قيس، وذلك من خلال شق الطريق في المنفى بالذهاب الى منفى المنفى ـ الى الكويت، حيث: «سيكون بوسعنا ان نعلم قيس... وقد نشتري عرق زيتون أو إثنين... وربما نبني غرفة في مكان ما»[١٠٠]، تلك هي أولويات أبي قيس المسكونة بفكرة اعادة انتاج الوطن خارج الوطن، وتحقيق مبدأ الانتماء الى المكان من خلال فكرة الامتلاك: «نبني غرفة». وهي الاولويات التي تلحّ عليه فتتكرر في تداعياته والسيارة تلهب الطريق في صحراء الكويت[١٠١].

إن مبدأ «التعميم» الذي يتوخاه كنفاني في تجسيد الغرفة بوصفها غرفة ما، في مكان ما في المنفى، يعكس عبر تداخله مع مبدأ «التخصيص» الذي يحيل الغرفة الى أبي قيس تحديداً، فكرة مؤداها ان هذه الغرفة هي غرفة اللاجيء ـ المنفي خارج الوطن، فهي غرفة «نموذج» بضيقها وحقارتها وعرائها وخوائها، مثلما ان أبا قيس «نموذج» لفئة من اللاجئين قادتها الضرورات الضاغطة، والانتظار الساكت الطويل، وأحلام اليقظة، الى العمل على اعادة انتاج الوطن خارج الوطن!

المخيم، كوخ طين، بيت اسمنت، جنة إلهية

ولئن كنا غير قادرين على تحديد ما إذا كانت غرفة أبي قيس داخل المخيم أو خارجه، وهو أمر دال كما سبق القول، فإن «رجال في الشمس» تقدم صورة موجزة، ودالة أيضاً، لبيوت المخيم، الذي لا نعرف، أيضاً، في أي بلد يقع على وجه التحديد، وذلك من خلال تداعيات مروان التي تكشف عن خلفيته الاجتماعية، والبيت الذي يقيم فيه في المنفى، والدوافع التي قادته الى الانخراط في رحلة الصحراء والموت.

في رسالة هي أشبه ما تكون بالتداعيات، يكتبها مروان الى أمه من «فندق حقير مرمي في